علاقة اللّغة العربيّة بالقرآن
من منظور الاستشراق الفرنسي

الدكتور: عبد الوهاب بن دحان
جامعة مستغانم

تُعتبَر اللُّغة أكثر أنظمة الاتّصال انتشارا بين البشر؛ ذلك لأنّها تتيح لهم التّواصل المستمر عن طريق التّخاطب والمحادثة والحوار، وتسمح للنّاس بالتّعبير عن حاجاتهم، وإبداء آرائهم، والإعرابِ عن أفكارهم نطقًا أو كتابة، وهي تمثّل الوجه المادّي للجانب المعنوي والنّفسي في حياة الإنسان، وفي هذا الصّدد يقول و.فون همبولت:«اللّغة هي المظهر الحسّي للنّاحية الرّوحية للنّاس وهي القوة الّتي تؤثّر في أنماط تفكيرهم.»[1] والعربيّة لغة تاريخها موغل في القِدَم، تمتدّ جذورها إلى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح عليه السّلام، وذلك إذا ما اعتمدنا على النّقوش الثّمودية الّتي تمّ اكتشافها في شمالي الجزيرة العربيّة ووسطها، وقد ذهب بعض الدّارسين إلى أنّ «اللّغة العربيّة أقدم اللّغات الحيّة، فليس ثمّة في العالم لغة محكيّة أقدم منها.» [2] وقد ساعد على انتشارها ارتباطها بالقرآن الكريم، فبفضل هذا الكتاب بلغت مدى لا تكاد تبلغه أية لغة أُخرى من لغات الدّنيا.

ومنذ أن أكرم الله نبيّه بنزول القرآن الكريم، ولغتُه العربيّة محلّ عناية وموضع احتفاء العلماء من ذوي الاهتمام باللّغات والآداب، بل ومن أصحاب التّخصّصات المختلفة، وأصبح بيانه مدارا لكثير من الدّراسات ونواة لكثير من الأبحاث السّاعيّة إلى كشف ما خفي من أسراره، ولأنّ اللّغة تمثّل الجدار السّميك الّذي يمنع طرفين مختلفين في اللّسان من التّواصل ومن أن يسمع أحدهما الآخر، ولأنّ الغرب المتوجّس خيفة من انتشار الإسلام، وكتابه النّاطق بالعربيّة قد أدرك ذلك، فقد بدأ مساعيه في خلق آليات تجعله يتعرّف على المسلمين وكتابهم العربيّ، ولعلّ مؤتمر (فيّنا) **1312**م[3] كان المنعطف التّاريخي في اهتمام الغرب المسيحي بلغة القرآن، فقد أوصى المؤتمر أن تُدَرَّس العربيّة في كبرى المراكز العلميّة الأوروبيّة: كباريس، وأكسفورد، وبولونيا.

ونظرا لأهمية اللّغة في الدّراسات الاستشراقيّة كانت الصّلة وثيقة بين اللّغة والاستشراق حتّى قيل:إنّ«الاستشراق علم يختص بفقه اللّغة خاصّة.»[4] وقد أكّد ديتريش أنّه «لا مجال للشّك في أنّ دراسة اللّغة العربيّة هي الأساس الرّصين لدراسة الحضارة العربيّة والتّعمّق في فهم العالم العربي.»[5] وقد عُني المستشرقون بدراسة القرآن الكريم، كما اهتمّوا بالبحث في اللّغة العربيّة باعتبارها اللّسان الّذي اختاره الله ليوحي به هذا الكتاب، «والإسهام الفرنسيّ في هذه الدّراسات العلميّة غزير ومتنوّع، يأخذ أحيانا شكل المجهود الجماعي، ويأخذ أحيانا أخرى شكل المجهود الفردي المتميّز، ولا شكّ أنّ من أهمّ ما أثمر عنه الجهد الجماعي للمستشرقين، فكرة الموسوعات العامة أو دوائر المعارف الإسلاميّة.» [6] فعملوا على نشر المخطوطات الّتي جمعوها، وقاموا بترجمة بعضها إلى اللّغة الفرنسيّة، أو الاقتباس منها وأسهموا في إلقاء محاضرات تتعلّق بمحتوياتها وتأليف كتب تبحث في مضامينها [7].

إنّ النّثر والشّعر بوصفهما تشكيلين لغويّين، كانا في كلّ الثّقافات وسيلتي التّعبير عن الإبداع الإنساني، ولقد شهد العالم زمنا احتلّ فيه الأدب والشّعر خصوصا موقعا متقدّما يشبه المكانة الّتي تحتلّها العلوم والتّكنولوجيا في أيامنا هذه، والمستشرقون يعتقدون أنّ المسلمين كما غير المسلمين يرون أنّ القرآن يندرج في نطاق الأدب العربيّ بامتياز أو هو أرقى ما في الأدب العربيّ، ومع ذلك فقد تحدّى البشريّة بقوله: «**وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى**

عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)»[8] وكانت العرب أوّل مَن واجهها هذا التّحدّي، ووقفت إزاءه وكأنّها مسلوبة الإرادة معقودة اللّسان.

وفي حديثه عن علاقة الحدث القرآني بالعلوم القرآنيّة، وبعد إشارته إلى ظروف ظهور علم البيان، والتّصنيف في قواعد اللّغة والمعجم، يقول بلاشير: «في جميع المجالات الّتي أطلعنا عليها من علم قواعد اللّغة العربيّة والمعجميّة وعلم البيان، أثارت الواقعة القرآنيّة وغذّت نشاطات علميّة هي أقرب إلى حالة حضاريّة منها إلى المتطلّبات الّتي فرضها إلى إخراج الشّريعة الإسلامية.» [9] وقد كانت هذه الظّاهرة عاملا أساسيّا في مجالات شتّى، وكانت ذات فاعليّة، «ولا تكون فاعليّة الواقعة القرآنيّة هنا فاعليّة عنصر منبّه فقط، بل فاعليّة عنصر مبدع تتوطّد قوته بنوعيّته الذّاتية»[10]حيث خلقت جوّا داعيّا إلى ظهور علوم مختلفة كان مدارها حول الوحيّ.

ومن حسنات الاستشراق اعترافه أنّ اللّسان العربيّ الّذي جاء به القرآن الكريم يتّصف بغزارة دلاليّة، وثراء لغوي منقطع النّظير، ومحتواه في غاية الكثافة لأنّه يهتمّ ويعالج كلّ ميادين الحياة الرّوحيّة والاجتماعيّة، علاوة على ذلك، فإنّ لغة القرآن تحتاج إلى مجهود كبير لفهمها ولو فهما جزئيّا، ومهما بذل القارئ من جهد فإنّ فهمه يبقى ناقصا، بالإضافة إلى أنّ الفهم الحرفي في حدّ ذاته يحتاج إلى معرفة جيّدة باللّغة العربيّة على الحال الّتي كانت عليها أيام النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهو أمر قد يكون في متناول المسلمين النّاطقين بالضّاد الّذين قد يواجهون بعض الصّعوبات هم أيضا، من هنا يمكن تخيّل الصّعوبات الّتي يواجهها القارئ الغربيّ. ومع أنّ لغة الوحي كانت خاصّة بالعرب، فإنّ الرّسالة الّتي حملها القرآن جاءت ذات نزعة عامّة وشاملة لأنّ غايتها الوصول إلى العرب وغير العرب.

لقد ذهب بعض الباحثين الفرنسيّين إلى أنّ اللّغة العربيّة لغة مشتركة والحدث القرآنيّ، وهي آخر لغة من اللّغات السّاميّة الكبرى الّتي دخلت التّاريخ، في نهاية القرن السّادس الميلادي، وقد بدأت إرهاصات نضوجها مع الأبيات الشّعرية لشعرائها الجاهليّين الأوائل المشهورين، ثمّ نالت أوفر حظوظها، مع القرآن الّذي حدّد مصيرها ودخلت في التّاريخ كلغة مشتركة بين القبائل؛ واستخدم الاستشراق مصطلح koinè للإشارة إلى هذه اللّغة الأدبيّة الّتي أصبحت ذات هيبة وشّأن[11].

ولما أصبحت العربيّة لغة حيّة تتداولها القبائل العربيّة على نطاق واسع في الجزيرة العربيّة، وقد اكتسبت هيبة، فإنّ الأمر. حسب أندري رومان . اقتضى أن تكون هي لغة القرآن، وبذلك يُعدّ القرآن علامة فاصلة، تحوّلت بموجبها العربيّة إلى لغة حضاريّة تعبّر عن ثقافة عربيّة إسلاميّة جديدة، وتسهم في إلغاء الاعتقادات السّالفة، والقرآن لم يكن له أن يُتلى في لغة أخرى غيرها، ومن ثَمَّ يزعم رومان أنّ لغة القرآن كانت لغة مخصّصة له قبل نزوله، ولم يستخدمها الإنسان العربي بالشّكل الّذي استخدمها القرآن من قبل. [12]

وبلاشير، وبحكم اهتمامه بلغة القرآن اهتماما ملفتا، فقد خصّص في كتابه (تاريخ الأدب العربي) فصلا تعرّض فيه إلى الظّاهرة القرآنيّة بالدّراسة محاولا ربطها بإرهاصات الإنشاء العربي، وقد اختار، من أجل ذلك، الحديث عن النّثر المسجوع الموزون والنّتائج الثّقافية للظّاهرة القرآنيّة، متناولا النّثر المسجوع والإيقاعي حتّى ظهور القرآن الكريم، واستعمال السّجع في أواخر القرن السّادس ومنحاه المحتمل، ثمّ انتقل إلى الحديث عن محمّد صلّى الله عليه وسلّم والقرآن، وعن تكوين النّصّ القرآنيّ، وحاضر القرآن والقضايا مرتبطة به، وخصّص مباحث أخرى تتعلّق بسور العهد المكيّ الأوّل، وسور العهد المكيّ الثّاني وسور العهد المكيّ الثّالث، وسور الدّعوة في المدينة، ليُتبعها بوقفة على الظّاهرة القرآنيّة، ويختم بالحديث عن المظهر الأوّل لتثاقف العرب المسلمين.

يبدأ بلاشير حديثه بالإيحاء إلى ما يعتري رواية الشّعر العربيّ من شكوك وملاحظات، مركّزا على الإرهاصات الّتي سبقت ظهور النّثر العربيّ، كما يحدّد الزّاوية الّتي ينظر من خلالها إلى القرآن، بوصفه صرحا أدبيّا، وبالنّظر إلى الشّعر الجاهليّ تابعا له فيقول: «يجدر بنا تقديم الشّعر الجاهليّ من زاوية تبعيّته للقرآن وعلى ضوئه.» [13] ثم يشرع في تحليل مفصّل لما سبق ذكره من عناصر، ففي حديثه عن النّثر المسجوع والإيقاعي حتّى ظهور القرآن، يركّز على ربط النّثر المسجوع بالسّحر، ويلفت النّظر إلى أنّ خصائص العربيّة، أهّلتها إلى أن تكون وعاءً لهذا الضّرب من القول، كما خصّص مساحة للحديث عن السّجع في أواخر القرن السّادس الميلاديّ؛ فالسّجع في هذا القرن أضحى وسيلة التّعبير الأولى المستعملة في جميع المناسبات، والمرتبطة دوما بالسّحر والكهانة، يشير إلى كلّ هذا، دون أن ينسى تذكير القارئ بظاهرة النّحل والانتحال الّتي تجعل البحث في هذا المجال محفوفا باحتمالات الوصول إلى نتائج غير موثوق بها، مشيرا إلى أنّ ارتباط هذا الشّكل من النّثر بطقوس الكهّان، وإصرار خصوم الإسلام على ربط سجع القرآن بسجع الرّئيين كانا سببين كافيّين، لأن يفقد السّجع اعتباره عند المسلمين فيما بعد، لأنّ «خصوم محمّد صلّى الله عليه وسلّم أصرّوا على الخلط بين السّجع القرآني وسجع الرئيّين، وعندما اعتقد النّاس بعد انتصار الإسلام أنّ الوحي الّذي نزل على محمّد يختلف جوهريّا عن وحي الكهّان، أدّى ذلك إلى اعتبار سجع الكهان شيطاني المنشأ.» [14]فتغير بذلك مفهومهم اللغوي بتغير المفهوم العقدي.

يقف بلاشير عند قوله عز وجل : «**وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)**»[15] ليؤكّد أنّه لا غرابة في أن ينظر الباحث للقرآن على أنّه أثر أدبي، ليستخلص فيما بعد أنّ التّصريح القرآني في هاتين الآيتين واثنتين غيرهما، كان المنطلق الأساس الّذي ظهرت من خلاله نظريّة (إعجاز القرآن) حيث طُرحت بصورة أكثر وضوحا، الفكرة القائلة: إنّ معجزة النّبي صلّى الله عليه وسلّم الحقيقيّة والوحيدة هي إبلاغُه النّاسَ رسالةً ذات روعة أدبيّة لا مثيل لها. [16]

يركّز بلاشير منذ البداية على أمر خطير في علاقة القرآن باللّغة العربيّة وتمثّل ذلك في كون القرآن الّذي بين أيدينا هو خلاصة إعداد استمرّ قرابة القرنين، ابتداء من بداية نزول القرآن على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وقد فصّل القول في المراحل الّتي مرّ بها تكوين النّصّ القرآني، موليا أهميّة للمجهود البشري، في الجمع، والتّدوين، واعتماد نسخة واحدة تُفرَض ويُلغَى غيرها، وقد أشار إلى أنّ « الظّروف الّتي اكتنفت تكوين النّص القرآني لهي غاية في الغرابة»[17]. وفي حديثه عن مكوّنات القرآن الكريم، أشار إلى عدد السّور، ومحتوياتها والتّأليف الإيقاعي للآيات، لينتهي بعد دراسته للقرآن المكّي والمدني إلى القول: «مع أنّ القرآن الّذي هو عند المسلمين صرح أدبي، يشكّل كلاّ لا يتجزّأ فهو تعبير عربي لكلام الله، كما أنّه جميل عجزت المحاولات البشريّة عن مداناة جماله.» [18]

كانت عناية الاستشراق بدراسة القرآن الكريم كبيرة، فقد اهتمّ بدراسته من جميع نواحيه، فبحث في تاريخه، وترتيبه، ووحيه، وجمعه، ونزوله، وروحه، وأصالته وتفسيره، وترجمته، وأسلوبه، ولغته، وبشريته وألوهيّته، وفلسفته وأثره في اللّغة والأدب، والفلسفة والفكر، واعتباره مصدرا رئيسيّا للشّريعة ومعاملاتها، ومقارنته بالكتب السّماويّة الأخرى، وغيرها من الموضوعات الّتي تعالج قضاياه، فكلّما نصادف كتابا أو مقالا من الأدب الاستشراقي نراه يعالج أمرا من القرآن وموضوعاته. [19] كما كان اهتمام الاستشراق باللّغة العربيّة عظيما، « فقد حرص على دراسة كلّ ما يتّصل بها من قريب أو بعيد فبحث في فقهها، وأصواتها، ونحوها، وصرفها، وأصولها ومعاجمها، وأطوارها، وغزارتها، ومادّتها، وفلسفتها، وعلاقاتها باللّغات الأخرى وخاصّة اللّغات السّاميّة، ومميّزاتها، وعناصرها، وتاريخها، ونقوشها وكلّ ما أنتجته هذه اللّغة حتّى يبدو كأنّه قد صبّ اهتمامه كلّه عليها، وذلك لصلتها الوثيقة بالإسلام

والقرآن والحديث والشّريعة على حدّ سواء.» [20] فاللّغة العربيّة هي بوابة الولوج إلى دراسة القرآن، وبدونها لا يمكن أن يعي الباحث شيئا في كتاب الله.

وفي حديثه عن علاقة القرآن باللّغة العربيّة، وقف جاك بيرك عند قوله تعالى: «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»[21] ليشير إلى أنّ الآية تتكوّن من عناصر كثيرة، وذكر منها: العربيّة والتّنزيل، ثمّ نبّه على أنّ هذه العبارة – الّتي تحتوي، أيضا على مقصديّة الوحي، والدّعوة إلى العقل – تتكرّر في القرآن ثماني مرّات[22]، كما أشار إلى قوله تعالى: «كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)»[23] فالآية ترفع شعار: (إطلاق عنان المعرفة) بمتابعة الإصغاء[24] إلى كتاب بُيِّنت آياتُه تمام البيان، وَوُضِّحت معانيه وأحكامه قرآنًا عربيًا ميسَّرًا فهمُه لقوم يعلمون اللّسان العربي، ولو جعل اللهُ هذا القرآن أعجميًا لقال معارضوه: هلاّ بُيِّنتْ آياته، فنفقهه ونعلمه، أأعجمي هذا القرآن، ولسان النّبي الّذي أُنزل عليه عربي؟. يجيب القرآن بسخريّة[25]: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44)»[26] هذا القرآن للّذين آمنوا هدى من الضلالة، وشفاء لما في الصدور من الشّكوك والأمراض، لأنّهم يصغون إليه، أمّا الّذين لا يؤمنون به، ففي آذانهم صمم من سماعه وتدبره، وهو على قلوبهم عَمًى، فلا يهتدون به.

وفي إجابته عن سؤال طرحه بصيغة مباشرة: ما هي لغة القرآن؟ أكّد أنّها الصّيغة الّتي وصل بها إلينا القرآن الكريم، وهي صيغة لسانيّة تتطابق مع لهجة قريش. [27] ولا يغفل بيرك الإشارة إلى أنّ العلاقة بين القرآن الكريم واللّغة العربيّة هي علاقة عقديّة، وأنّ اللّقاء بينهما كان بين المطلق والتّاريخي، وقد اتّسم بسمة التّحدّي، ليس من حيث الموضوع فقط، ولكن من حيث الصّيغة، الّتي جعلت منه:جإماما مُبيناچ يقدّم نفسه في لغة سهلة بالنّسبة إلى العرب الّذين نزل بلسانهم[28]، ثمّ يستدرك بيرك بقوله:« غير أنّ فورية المعنى والإدراك الّتي يتطلّبها النّقل ليست أمرا ميسورا.» [29] ويعود مرّة أخرى إلى علاقة القرآن باللّغة العربيّة، ليشير إلى أنّ لغة القرآن عربيّة من الطّراز العالي، وقد اكتسبت شرعيّتها من الاختيار الإلهي. [30]

إنّ ما ذهب إليه بلاشير من اعتبار ما أثارته الواقعة القرآنيّة وما غذّته من نشاطات علميّة هي أقرب إلى حالة حضاريّة، قد جاء في سياق حديثه عن نشوء بعض علوم اللّغة العربيّة، وقد أصاب في الإشارة إلى أنّ دور الحدث القرآنيّ لم يكن دور المنبّه والمحفّز فحسب، بل كانت وظيفته إبداعيّة، جعلت من العربيّة لغة عبقريّة دُوّنت بها حضارة شاهدة في تاريخ البشريّة، لذا جاء رأي أندري رومان متجانسا مع الحقيقة التّاريخيّة، فالعربيّة لغة مشتركة والحدث القرآنيّ، لا يمكن أن يُذكر أحدهما دون ذكر الآخر، وهي آخر لغة من اللّغات السّاميّة الكبرى الّتي دخلت التّاريخ، في نهاية القرن السّادس الميلادي، وقد ظهرت اللّغات السّاميّة –كما يقول إرنست رينان – «في زمن ما قبل التّاريخ، وعاشت في نفس المناطق الّتي نراها تتحدّث بها اليوم، ولم تخرج منها إلاّ عن طريق الغزو الفنيقي، والفتح الإسلامي: أريد أن أقول إنّه داخل فضاء شبه الجزيرة المغلق... لم تسافر أيّة عائلة لغويّة، أو لم تشعّ على الأقل بالخارج.» [31] ومع ذلك يرى أندري رومان أنّ لغة القرآن كانت لغة مخصّصة له قبل نزوله، لم يستخدمها الإنسان العربي من قبل، ورأي رومان يذكّرنا بأنّ القرآن هو سرُّ هذه اللّغة، وحياتها، قال الرّافعيُّ: « إنّ هذه العربيَّة بُنِيَتْ على أصلٍ سحريّ يجعل شبابها خالداً عليها، فلا تهرم ولا تموتُ؛ لأنّها أُعِدَّتْ من الأَزَلِ فَلكاً دائِراً للنيّرين الأرضيين العظيمين: كتاب الله، وسنة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، ومن ثَمَّ كانت فيها قُوَّةٌ عجيبةٌ من الاستهواء، كأنّها أخذةُ السِّحر، لا يملك معها البليغ أن يأخذ أو يدع.» [32] فالمعلوم أنّ المعجزة القرآنيّة تمثّلت في تحدّي العرب باللّسان الّذي كانت تنظم به أشعارها، وتتواصل به فيما بينها، غير أنّ القرآن قد استخدمها في نسيج من النّظم المعجز، جعل المؤمنين يردّدون: «**إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (4)**»[33] ولم يروا فيه صرحا أدبيّا مجرّدا

كما رآه بلاشير، «**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)**»[34] نزل بصيغة لسانيّة تتطابق مع لهجة قريش – كما قال بيرك – فقد أمر عثمان الكتبة بالعودة إلى لسان قريش في حال الاختلاف، بقوله: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش. فإنّه إنّما نزل بلسانهم.»[35] وهذا ما فعله النّسّاخ.

إنّ العلاقة بين القرآن الكريم واللّغة العربيّة علاقة عقديّة – كما رأى بيرك – واللّقاء بينهما كان بين الوحي الإلهي ذي المصدر المطلق ولسان قريش عبر تطوّر تاريخي، أهّله إلى قيادة حضارة إنسانيّة رائدة، وقد اتّسم التّحدّي القرآني بسمة الإعجاز، ليس من حيث المضامين فحسب، بل على مستوى البنية اللّغويّة، فلغة القرآن عربيّة نموذجيّة، مكّنت اللّسان العربي من بلوغ شأو كبير، قال ابن فارسٍ: «إن كلام الله جلّ ثناؤه أعلى وأرفع من أن يُضاهى أَوْ يُقابل أَوْ يعارض بِهِ كلام، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام العليّ الأعلى خالق كلّ لغة ولسان، لكنّ الشعراء قَدْ يؤمنون إيماءَ ويأتون بالكلام الَّذِي لو أراد مُريد نقْلُه لاعْتاص وَمَا أمكن إِلاَّ بمبسوطٍ من القول وكثير من اللّفظ.»[36] ونظمُ القرآن الكريم يجمع إلى الجمال عزّة وغرابة...وهذا الجمال كان قوّة إلهيّة حُفظ بها القرآن من الفقد والضّياع.[37]

ولولا القرآن الكريم لم تحظَ اللُّغةُ العربيَّةُ بما حظيَتْ به من خدمةٍ، فأُنشأت العلوم وتمّ تدوينها، وتصنيف مسائلها في أبواب، وتنافس العلماء على دراستها والنّظر فيها بالجمع، والتّأليف، والتّقعيد، وتفنّن الباحثون في وجوه جمالها، وإعجاز قرآنها[38] ، و«إنّما القرآن جنسيّة لغويّة تجمع أطراف النّسبة إلى العربيّة، فلا يزال أهله مستعربين به متميّزين بهده الجنسيّة حقيقة أو حكما حتّى يتأذّن الله بانقراض الخلق وطيّ هذا البسيط، ولولا هذه العربيّة الّتي حفظها القرآن على النّاس وردّهم إليها وأوجبها عليهم لما اطّرد التّاريخ الإسلاميّ ولا تراخت به الأيام إلى ما شاء الله، ولما تماسكت أجزاء هذه الأمّة ولا استقلّت بها الوحدة الإسلاميّة.»[39] وقد اجتمعت جهود علماء العربيّة، وجهود علماء الدّراسات القرآنيّة في حقول دراسيّة كثيرة، وكان لعلماء اللّغة العربيّة دور كبير في بعض هذه الميادين، منها:

- ألفاظ القرآن، ومدى مشاركة اللُّغويّين في شرحها، وتصنيفها، ودرسها.
- جهود علماء العربيّة في بيان إعجاز القرآن، وأوجه بلاغته.
- معاني القرآن الكريم، وتفسيره، وإسهامهم في ذلك.
- علم الرّسم، ومدى إسهام علماء العربيّة في ذلك.
- الاحتجاج للقراءات القرآنيّة وبها.
- دراسات عامّة حول القرآن[40].

إذن، يجب التّأكيد على أنّ العلاقة بين القرآن واللّغة العربيّة، هي علاقة وجود وإنّه لولا وجود القرآن الكريم[41]، لم يكن للعربيّة بقاء، أو لاقتصر وجودها عند فئةٍ من النّاس معزولةٍ عن العالم، غير أنَّ القرآن برسالته العالميّة نقلها إلى دائرة الضّوء، وأقحمها في بُؤْرة الاهتمام العالميّ، يقول آربري: «كان من فخارها أنّها صارت الواسطة الّتي نُقِلَ بها أرسطو وجالينوس اللّذان كانا قد آلا إلى النّسيان»[42]، وقد بلغ القرآن بالعربية الرّيادة فاهتمّ النّاس – من العرب وغير العرب – بها اهتماماً كبيرا، وتعلّموها تعلّماً، وأصبحوا يغارون عليها، ويسعون إلى إتقانها، «ذلك أنّها تحلّ في قلبِ كلّ مسلم في أعلى مكانٍ منه، وهي أجلّ وأكبر لديه من كل لسانٍ، وكل لغة.»[43] وهذا الجانب من العلاقة بين العربية وكتابها السّماويّ لم يخرج فيه المستشرون عن حدود المتواتر من تاريخ القرآن ومسيرة العربيّة.

الهوامش

1-عمايرة، إسماعيل أحمد. المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدّراسات اللّغوية. ط2، دار حُنين للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، 1992، ص 16.

2- فروخ، عمر. تاريخ الأدب العربي. ج 1(الأدب القديم: من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة)، ط 4، دار العلم الملايين، بيروت، 1981،ص 35.

3- عمايرة، إسماعيل أحمد. بحوث في الاستشراق واللّغة. ط1، دار البشير، عمّان، الأردن، 1996، ص 377.

4- عمايرة، إسماعيل أحمد. المستشرقون والمناهج اللّغوية. ط2، دار حُنين للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، 1992،ص 15.

5- عمايرة، إسماعيل أحمد. المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدّراسات اللّغوية. ط2، دار حُنين للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، 1992، ص 16.

6- درويش، أحمد. الاستشراق الفرنسي والأدب العربي. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1997، ص 13.

7- المقداد، محمود. تاريخ الدّراسات العربيّة في فرنسا. المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، 1992، ص 115.

8- البقرة: 23 - 24.

9- القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1974م، ص104.

10- ن م، ص104.

11- Voir : André Roman. Grammaire de l'Arabe. Presses Universitaires de France, Paris, 1990, p 13.

12- Ibid.

13- بلاشير، ريجيس. تاريخ الأدب العربي. تر:إبراهيم الكيلاني، الدّار التّونسيّة للنّشر، 1986، ص202.

14- بلاشير، ريجيس. تاريخ الأدب العربي. ص 209.

15- البقرة: 23 - 24.

16- يُنظر:بلاشير، ريجيس. تاريخ الأدب العربي. ص 210 - 211.

17- بلاشير، ريجيس. تاريخ الأدب العربي. ص 215.

18- ن م. ص 237.

19- سمايلوفيتش، أحمد. فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربيّ المعاصر. دار المعارف، القاهرة، 1980، ص 173 . 175.

20 ن م ، ص 184 - .185

21- يوسف:2.

22-Voir : BERQUE, Jacques. Relire le Coran. Bibliothèque Albin Michel, Paris,1993 p.108.

23- فصّلت: 3.

24- Voir: Relire Le Coran. P108.

25- Ibid.

المواضع الّتي تكرّر فيها وصف القرآن بأنّه عربي هي: «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(2)» يوسف: 2. «وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ (37)» الرعد:37. «وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (113)» طه: 113. «قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28)» الزمر: 28. «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7)» الشورى: 7. «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)» الزخرف: 3. «وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (12)» الأحقاف: 12

26- فصّلت: .44

27- voir: Relire Le Coran. P110.

28- Voir: Relire Le Coran. P111 - 112.

29- Relire Le Coran. P112.

30- Voir: Relire Le Coran. P124.

31-Ernest Renan. Histoire Générale et Système Comparé des Langues Sémitiques. Première partie, Imprimerie Impériale, Paris, p.25.

32- الرّافعي، مصطفى صادق. تحت راية القرآن. ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1424هـ/2003م. ص 21.
33- النّجم: 4.
34- البروج: 21 - 22.
35- مكرم، عبد العال سالم. القرآن وأثره في الدّراسات النّحويّة. ط 2، مؤسّسة علي جراح الصّبّاح، 1978، ص 14.
36- ابن فارس، أبو الحسن أحمد. الصّاحبي في فقه اللّغة. تح: أحمد صقر. عيسى البابي الحلبيّ وشركاه، القاهرة، 1977م. ص16.
37- الرّومي، فهد بن عبد الرّحمن بن سليمان. خصائص القرآن. ط 9، العبيكان، الرّياض، 1997، ص 29.
38- العايد، سليمان بن إبراهيم. عناية المسلمين بالعربيّة خدمة للقرآن. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د ت، ص 7.
39- الرّافعي، تحت راية القرآن. ص 31.
40- العايد، سليمان بن إبراهيم. عناية المسلمين بالعربيّة خدمة للقرآن. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د ت. ص 5.
41- يُنظر: عناية المسلمين بالعربيّة خدمة للقرآن، ص 29.
42- نقلا عن: عمايرة، إسماعيل أحمد. المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية. ط2، دار حُنين للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، 1992، ص 40.
43- نفسه.